المشرق

آثار النصرانية في هياكل مصر الوثنية

الاب ميخائيل جوليان اليسوعي

ان السائح الذي يطوف ارض الفراعنة يُفتَن من محاسنها ويقضي العجب من آثارها. ولكن لا شيء يستوقف ابصارهُ كالهياكل العظيمة التي شيَّدها قدماء المصريين لاصنامهم ومنها ما يرتقي تاريخهُ الى ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ سنة فانهُ يجد في هندستها وبديع نقوشها ما ينطق بلسان حالهِ عن تقدُّم الاقدمين وارتقائهم في معارج الفلاح

١

على ان من دقَّق النظر في هذه الآثار الجليلة التي تُرى في الصعيد لا يلبث ان يكتشف فيها على بقايا الدين المسيحيّ الذي غلب الوثنيَّة واستولى على معابدها فابقى للقرون التوالية آثارًا تنبئ بانتصاره وتُشيد بظفرهِ على شرك الامم. وهذه البقايا عبارة عن صلبان محكمة النقش نُقِرت على ابواب الهياكل مع رموز دينيَّة وكتابات وتصاوير رسمها الزوَّار ومذابح وعمد بل ترى كنائس كبرى مع ما يلحق بها من البنايات كالمناوه ومنازل الكهنة وربَّما رأيت ديرة داخلة في حيزها

وان طلبتَ لهذه الآثار تاريخًا يرشدك على زمانها خاب أملك لولا انَّ تاريخ احوال المملكة الرومانيَّة يرشدك الى المرام. فان تاودوسيوس الكبير في اواخر القرن الرابع كان شرع الشرائع وامر باقفال هياكل الاوثان او تخصيصها بالمنافع العموميَّة فتملَّكها المؤمنون وجعلوها كنائس عبدوا فيها الاله الحقيقي الى ظهور الاسلام. ثمَّ اخفى عليها الزمان فصارت مأوى للبومة والثربان

فهذه هي الابنية التي اسعدنا الحظ بزيارتها فوجدنا فيها الآثار المسيحيَّة التي سبق ذكرها وحاولنا وصفها في هذه اللمعة الموجزة

وان سألنا السائل ما بالنا خصصنا بالذكر بلاد الصعيد واضربنا عن مصر السفلى . اجبنا انَّ هياكل « الدلتا » لم يبقَ منها الا القليل لما اصابها من صروف الدهر فتضعضعت اركانها وانفرطت قلائدها وذلك لتتابع الحروب التي انتشبت نيرانها في هذا القسم من القطر المصري ولعيش كثيرين من السكان بهذه الآثار النفيسة فانَّ مصر السفلى ليست بغنيَّة بمقالع الحجارة بل لا ترى فيها اثرًا للصخور الكائنة . فلمَّا رأى الاهلون انَّ هياكل قدماء المصريين مهمة لا يتولى احد حراستها اخذوا ينقلون منها لابنيتهم الجديدة ما توصلت اليه ايديهم حتى لم يبقَ بعد حين من هياكل الاسكندريَّة وتنيس وبوبسطة (تلّ بسطة) الا ردمٌ من الحجارة التي لا تصلح للكلس وينفيها البُنَّاة كبعض السواري وقطع من التماثيل المنحوتة من الحجر الصوَّان . وما لنا نذكر الاعصار السالفة فانَّنا رأينا رأي العيان في انحاء مصر السفلى والفيوم بل على مقربة من القاهرة قومًا من الفعلة يجدُّون في تحطيم حجارة ابنية قديمة مزينة بالنقوش والكتابات الهيروغليفيَّة لينقلوا قطع هذه الآثار الى اتون من النار فيتخذوا منها كلسًا لمبانيهم المستحدثة . وفي قولنا هذا ما يدحض شكايةً كثيرًا ما وجهها بعض الكتبة الى نصارى مصر انهم ابادوا آثار الاقدمين وخربوا هياكلهم بغضًا بدين الاوثان . وغاية ما نعلمهُ من امرهم انهم هدموا قبل هيكل سيرابيس في الاسكندريَّة لان عبدة الاصنام بعد ان أثاروا ثورة هائلة في المدينة واراقوا الدماء سيرلًا تحصنوا في ذاك الهيكل فامر تاودوسيوس بهدمهِ سنة ٣٨٩ ففعلوا . ولعلَّ النصارى اذ ذاك ارادوا الاشتفاء من الوثنيين بتقويض بعض معابدهم الا ان فعلهم هذا كان عرضيًّا وابقوا من معابد المصريين قسمًا كبيرًا . والدليل على ذلك ما اخبر به تاوفيلكتوس عن هيكل السعد (Tycheum) الذي بقي في الاسكندريَّة الى القرن السابع سالمًا مع ما كان يزينهُ من التماثيل والاصنام

ولنا ايضًا دليل آخر على انَّ هذه المعابد لم يقوضها كلها قدماء النصارى وهو انَّ البعثة الفرنسويَّة العلميَّة التي قدمت مصر مع بونابرت قبل مئة سنة وصفت عدَّة هياكل قديمة ورسمت صورها وهي اليوم اطلال خربة . فان صحَّ ذلك في زمن قريب من ايامنا فما قولك في ١٣ جيلًا متوالية توفرت فيها اسباب الدمار وقامت الحروب على ساق . بل ما قولك بالزلازل التي ابادت ما لم تقوَ على خرابهِ ايدي البشر وما ظنُّك بالنيل الذي تعدَّى مرارًا حواجزهُ الطبيعيَّة فخرَّبت مياههُ بطغيانها ما خرَّبت من مباني القدماء .

ولا حاجة الى شاهد بعيد على صحة قولنا فاننا في الخريف الماضي زرنا هيكل عمون في الكرنك ورأينا ردهته الجليلة ذات السواري التي قال عنها بعض الكتبة انها احق من غيرها بان تعد بين سبع عجائب العصور فوجدنا ١٣ عمودًا منها كانت قد سقطت ومثين من الفعلة يسعون في ترميم ما خرب منها. فسألت المهندس عن سبب سقوطها فأجاب: « اننا عاينا قبل سنتين ان البحيرة المقدسة التي تبعد عن هذه الردهة نحو ١٥٠ قدمًا قد اخذ ماؤها في النضوب حتى هبط سطحها في يوم واحد نحو ٦٠ سنتيمترًا دون ان يعلم احد سبب ذلك. وفي اليوم التالي هبطت هذه العواميد مع ما يستند اليها من الحجارة المنقوشة والافاريز البيّنة وكادت تقوّض الباب الكبير. وبعد الفحص الدقيق وجدوا ان حجارة الاساس الرملية كان اصابها النطرون واثرت فيها الرطوبة فتفتّت دقائقها »

٢

ولكن دعنا نعود الى ذكر هياكل الصعيد مع وصف الآثار المسيحية التي عايناها في جملة تلك البقايا الماثلة حتى يومنا

لا غرو ان النصارى الذين اهتدوا في مصر الى الدين المستقيم بعد ضلال الشرك كانوا ينظرون الى هياكل الاصنام بعين البغض والمقت لاسيما انهم كانوا يرون انّ الاباطة خزاهم الله استغووا العقول بمحاسنها الباهرة وهندستها البديعة. ولعلّ بعضهم فكّروا في هدمها لئلا تكون عثرة لمواطنيهم الّا ان البصيرة وحكمة العقل ادّيا بهم الى ما هو اصلح لشؤونهم واجدر بالمعارف التاريخيّة فطهّروا هذه الهياكل وخصّصوها بخدمته تعالى. فانهم وجدوا في عظمتها وجمالها ما يسمو بهم الى معرفة الاله الحقّ ويثير في قلوبهم عواطف الحب لعزّته تعالى

ثمّ اعاد النصارى النظر في الكتابات التي كانت تزيّن الهياكل فوجدوها مع ما فيها من اضاليل الشرك تتضمّن عددًا وافرًا من الحقائق التي اوحى بها الله الى البشر الاوّلين وتشهد بذلك عن صحة الدين النصراني. فمن ذلك الاقرار بالاله الخالق والاشارة الى الثالوث الاقدس وذكر الدينونة. ولكل هذه الحقائق تصاوير تبرزها للعيان فترى مثلًا في الدينونة الاله جالسًا للحساب وبيده ميزان في احدى كفّتيه قلب الميت وفي الاخرى ريشة ضام تمثل العدل (١). وبقرب الميزان اله آخر يدوّن نتيجة الوزن

(١) اعلم انّ للريشة والعدل في لغة قدماء المصريين لفظةً واحدة. ولعلّ ذلك هو السبب

ثمَّ يقود الميت الى الديان العظيم اوزيريس وهو جالس على عرشه فيحكم الحكم الفصل في جزاء النفس او عقابها الابدي. امَّا النفس فهي ممثَّلة بصورة طائر ذي يدين يبسطهما للصلاة او طائر ذي رأس بشري

ثمَّ انَّ النصارى وجدوا في اكمام اجسادهم لاجساد الموتى ما يثبت ايمانهم بالقيامة. فان قدماء المصريين كانوا لا يدَّخرون وسعاً في تطهير الجسم وتحنيطه ودفنه وصيانته من كلّ يد اثيمة كأنهم يؤمنون انَّ النفس تعود قريباً الى بيتها السابق فتحييه. وربَّما صوَّروا نفساً على شبه طائر يرفرف حول الميت طالباً ان يعود اليه فيجتمع به (١

وكان النصارى يرون في جملة هذه التصاوير ما يذكِّرهم بالارواح المجرَّدة والملائكة العلويين فانَّ الاله « كا » هو حارس الانسان في الحياة والمدافع عنهُ بعد الموت وكانوا يصوِّرونهُ على مثال ذراعين ممدودين الى السماء. ومن هذه الارواح من يقوم بحراسة المدن والممالك كما يعتقد النصارى

وممَّا كان من شأنه ان يزيد نصارى القبط حرصاً على حفظ آثار اجدادهم رؤية شكل الصليب في التصاوير المصريَّة. فانك تجد هذه العلامة منقوشة في الهياكل المصريَّة على هيئات شتَّى منها الصليب المزدان بالعروة في رأسه (croix ansée) كان النصارى يجدون في شكله ذكر صليب فاديهم بينما كان الوثنيون يعتبرونهُ كآية الحياة. ولبعض هذه الصلبان المصريَّة ذراعان يحملان صولجان الملك والسلطة. وغيرها يمسك بها احد الالهة او الكهنة فيقرِّبها الى شفاه الميت ليتقبَّلها قبل وفاته. ومن هذه الصلبان ما يدخل في الكتابة المصريَّة فيدلّ على لهجات ومقاطيع لفظيَّة. ومنها ما هو مرسوم في وسط دائرة دلالة على انَّ الكلمة التابعة اسم علم لمدينة

فالنصارى لدى مشاهدتهم آلة الخلاص منقوشة في كل الكتابات المصريَّة أبوا ان يطمسوا هذه الآثار مع ما فيها من صور آلهة مصر السمجة (٢

(١ ترى مثل هذه الصورة في هيكل اوزيريس الصغير وهيكل اوبت الملاصق لهيكل خنسو في الكرنك

(٢ والدليل على ان النصارى استخدموا صور الصليب التي رسمها قدماء المصريين انك ترى في مدافن « وادي الملوك » عدداً وافراً من هذه الصلبان يزينها على جوانبها المرفقان اليونانيان ΩA الدالان على المسيح ولاهوته اضافها النصارى الى صلبان قدماء المصريين لمَّا التجأوا الى هذا الوادي في ايام الاضطهاد

٣

ثمَّ انَّ من يسرّح طائر البصيرة في هياكل قدماء المصريين يرَ انَّ النصارى احسنوا بحفظها وتخصيصها لدين الاله الحقّ لانَّ تركيب هذه الهياكل يوافق حقّ الموافقة شواعر العبادة المسيحيَّة. وذلك ان الهيكل المصري هو مبني عادةً على صورة مربَّع مستطيل الشكل ذي ثلاثة اقسام: الدار والرواق والمقدس. وعلى جانبي مدخل الهيكل برجان عظيمان او هرمان مسطّحان يقومان على ركنَيْن مربَّعين فالزائر لا يبلغ هذا المدخل حتى ينوص نظرهُ في الدار والرواق وينتهي الى المقدس

والدار مكشوفة للسماء يحدق بها بعض الاحيان في باطنها سقيفة ممتدَّة الاروقة. اما الرواق الذي امام باب المقدس فهو عبارة عن قاعة فسيحة لها سقف منقوش يستند الى سوارٍ عديدة. والرواق المذكور منفصل عن المقدس بجدار ضخم. وفي وسط الجدار باب يُدخل منهُ اليهِ. وهذا المقدس يتركَّب من بناية صغيرة مكعبة تحيط بها على شكل دائرة غُرَف لسدنة الهيكل مع لوازم خدَمهم يفصلها عن المقدس معبرٌ مستدير الشكل ضيّق المجاز

وكان لهذا المقدس بابٌ واحد يجلونهُ فيهِ على سواء البناء ومحورهِ. وكان الفرعون نفسهُ لا يلجهُ الَّا في ايام معلومة يرتأي بدخولهِ في وسطهِ انه يحتلّ منزل اللاهوت. اما دار الهيكل فكانت تمثّل لهم العالم كما انهم يعتبرون الرواق الذي يفصل الدار عن المقدس كمكان متوسّط بين اللاهوت والدنيا. وكان القدماء من المصريين يزعمون انَّ مركز الحياة في المقدس يُنشئها آلهتهم فيهِ ثمَّ يوزّعونها للعالمين في رواق الهيكل حتى اذا بلغت الدار تنتشر فيها وتنمو بين البشر. وعلى ذلك تدلُّ الكتابات المخطوطة في جدران هياكل الصعيد. وكان الوثنيون يكثرون النقوش والتصاوير في مقادس هياكلهم ويزيّنونها بالسواري ويسقّفونها بصفائح الحجارة يصوّرون عليها البروج الفلكيَّة وكواكب السماء

ولمَّا صارت هذه الهياكل في ايدي النصارى جعلوا كنائسهم في اروقتها وتركوا المقادس للكهنة ليسكنوها ويقيموا فيها بعض الاسرار التي لم يحبوا كشفها للجمهور. اما الدار فأبقوها للمجتمعات الكبرى والمواكب الدينيَّة والطوافات العيديَّة الحافلة

ولم يبيدوا النقوش والكتابات التي وجدوها في تلك الهياكل الماديَّة بل اكتفوا بان حجبوها لوقتٍ عن ابصار المؤمنين وضمّ ما فعلوا فانهم بحفظهم اياها لم يحرموا عددًا وافرًا من الشواهد التاريخيَّة التي تمكّن علماء عصرنا من قراءتها فجاءت مؤيّدة لعدَّة

اخبار انكر صحتها الكنيسة قبل عهدنا ونسبوها الى الروايات الخرافية مع ورودها في الاسفار المقدسة. اما طريقة النصارى في اخفاء هذه الكتابات دون اتلافها فأن عمدوا الى طليها بالكلس الذي لا تزال آثاره بادية في تجاويف الخطوط المنقورة في الحجارة. وربما طلوها باللاط ونقشوا فوقها النقوش الحسنة كما ترى هيكل القصور الكبير بالكرنك في ممشى تحوتمس الثالث. وخلاصة القول ان النصارى لم يطمسوا شيئاً من الكتابات المصرية التي وجدوها بعد ان صارت في حوزتهم اللهم الا في هيكل دندرة الذي حول المسيحيون ردهته الكبرى الى بيعة فانهم نحتوا بعض كتاباته في الجدار المقابل للمذبح وفي الستة العواميد المجاورة للجدار

هذا فعلهم في المقدس اما الاوراق التي كان يجتمع فيها المؤمنون فان النصارى لم يفسدوا منها الا التصاوير الملحجة التي وجدوها فيها وكان كثير من هذه النقوش تمثل اشخاصاً في هيئات مغايرة للآداب فأزال النصارى منها ما رأوه منافياً الحشمة دون ان يمسوا باقيها. ولعلهم بذلك ارادوا ايضاً ان ينجزوا أوامره تعالى في كتاب الخروج حيث قال: لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق ولا مما في الارض

اما الدمى والانصاب والتماثيل المجسمة التي كان قدماء المصريين اقاموها في تلك الهياكل لاصنامهم فان النصارى لم يروا وجهاً لحفظها بل اتلفوا تلك الارجاس وحطموا منها ما استطاعوا. ولا تثريب في ذلك عليهم لان اكثر آلهة المصريين كانت على اشكال غريبة ورؤوسها رؤوس حيوانات مستقبحة فكسر النصارى تلك التماثيل او شوهوها بقطع هاماتها كما فعلوا في «مدينة ابو» التي اتخذوا دار هيكلها كنيسة لهم. وكذلك في هيكل رعمسيس بالكرنك فان المسيحيين حزوا رأس اوزيريس كبير آلهة المصريين في كل تماثيله كما انهم قرأ تمثال رعمسيس الثاني ونصفوه بحذاقة عجيبة بحيث لم يبقوا اثراً للمقراض. وهذا التمثال آية في الكبر والضخامة كان طوله ١٧ متراً ونصف متر وثقله نحو الف الف كيلوغرام ودائرة شلوه نحو ١٢ متراً

٤

بعد هذه اللمحة العمومية هلم بنا نستقري كنائس الصعيد التي وجدنا آثارها في هياكل قدماء المصريين

(كنيسة دندرة) كان موقعها في رواق الهيكل القديم وهذا الرواق ردهة واسعة

علوها ١٥ متراً يزينها ٢٤ عموداً وعلى العواميد اكلة تمثل الاله هاتور مع رأس البقري. اما المذبح فكان مركزهُ على شمال الداخل موجهاً الى الشرق. وتحت هذه الردهة سربٌ مظلم متسع الجوانب كثير النقوش جميلها فلم يمكنّا الوقوف على غاية المصريين من ابتنائهِ واتقان زينتهِ. وليس في هذا السرب ما يدلُّ على انَّ القدماء كانوا يقيمون فيهِ الفرائض الدينيَّة لاننا لم نجد فيهِ اثراً للمشاعل

وكان هيكل دندرة في وسط مدينة كبرى يدعوها اليونان تنتيريس لم يبقَ منها اليوم سوى اطلالها ورددومها. ثمَّ اهتدى اهلها ودانوا بالنصرانيَّة فصارت مقاماً لاحد الاساقفة. ومنذ اربع سنوات اذ كان الفلاحون يحفرون بين هيكل دندرة الصغير المعروف بالميلاد ومخرفة هيكل هاتور اكتشفوا تحت ركام النطرون بقايا كنيسة بديعة الشكل مدخلها بجوار هيكل الميلاد اما حنيَّتها فتواجهُ المشرق وهي ملاصقة لمخرفة الهيكل. وكانت هذه الكنيسة المتينة البناء حسنة المواد من الطرز اليوناني او البوزنطي ترى في بابها الكبير نقوشاً محكمة الصنع وكان لها على جوانبها معابد تكتنفها وفي جدرانها كوى جميلة وحتى اليوم لم تُنتزع عنها الانقاض المحيطة بها

(كنيسة القصور) اتخذ النصارى لهم في القصور كنيستين بنوا الواحدة منها بناء تاماً وجعلوها بين ساحة رعمسيس الثاني وصفّ عواميد امينوفيس الثالث من جهة النيل. اما الكنيسة الثانية فجعلوها في الرواق ذي العواميد الثانية الواقع بين الرواق الكبير والمقدس. واقاموا بازاء باب المقدس القديم حنيَّة على شكل نصف دائرة وأقاموا الحنيَّة عامودين عظيمين من الطرز القورنثي. وكل ذلك باقٍ حتى الآن الَّا انَّ المذبح قد هُدم. ولا ريب في انَّهُ كان منصوباً في الحنيَّة الصغرى ليكون مواجهاً للمؤمنين وهم وقوف تحت القنطرة الوسطى من الرواق الكبير او في وسط الدار. وعليهِ فانَّ المذبح كان في جهة الجنوب الغربي وذلك بخلاف القاعدة الشائعة في اوائل الكنيسة بان يُنصب المذبح من جهة الشرق. ولعلَّ المصريين لم يعتبروا هذه السُّنَّة كامر لازب في عهد ثاودوسيوس. ولنا على ذلك شاهد آخر في كنيستي فيلة التي ابتناهما النصارى وجعلوا مذبحيهما من جهة الشمال

ويجدران هذه الكنيسة في القصور مطليَّة باللاط ومزيَّنة بنقوش وصور بعض القديسين وغير ذلك من الرموز المسيحيَّة وهي متقنة التصوير ليس كما زعم دليل بديكر

(Baedeker) الذي وصفها بتصاوير خشنة . وبينها صورة رأس غاية في الجمال استحسنهُ احد اساتذة المانية حتى انهُ عوَّل على الرجوع الى القصور لفحص دقائقهِ قبل ان يُمحى اثرهُ . والحق يقال انَّ هذه التصاوير معرَّضة للتلف رأيناها في هذه السنة فوجدناها قد تشوَّه حسنها عمَّا كانت منذ اربع سنوات

والفضل في اكتشاف هذه كنيسة القصور القديمة مع تصاويرها العجيبة عائد للمسيو مسبرو الذي ازال عنها ما كان يطمرها من الردم والخرابات سنة ١٨٨٦ ونقض دير حضرات الآباء الفرنسيسيين المبني فوق هذه العاديات واعاضهم منهُ بملك آخر اوسع واحسن موقعاً ابتنوا فيهِ ديراً جديداً مع مقام الراهبات ومدارس للاحداث . ثمَّ واصل المسيو مسبرو الحفر فوجد ما عدا الكنيسة حجرتين كبيرتين وغير ذلك من الابنية التي كانت لاحقة بالكنيسة . على انَّ قسماً من هذه العاديات لا يزال مطموراً تحت جامع قائم هناك عند زاوية ساحة رعمسيس الكبرى من جهة الشمال الشرقي

وفي جوار الكنيسة عند الرواق الكبير ترى ركناً عظيماً نُقشت عليهِ كتابة لاتينيَّة هذه صورتها :

Fortissimo Ac Piissimo || Imperatori Domino Nostro Flavio Valerio Constantino || Pio Felici Invicto Augusto || Valerius Romanus Et Alcaupius Dux || Legionis Et Thebarum Urrarumque || Libenti Animo Ejus Semper || Dicatissimus

فيستفاد من هذه الكتابة (ومثلها في اللاتينية نادر في مصر) انَّ الركن كان منصوباً عليهِ تمثال قسطنطين الكبير اقامهُ اكراماً لهذا الملك الظافر الجليل ڤاليوس رومانوس ألكوبيوس والي الصعيدين ومقدَّم الفرقة الجندية

(كنائس الكرنك) اذا اجتزنا من القصور الى الكرنك وجدنا ثنت ايضاً كنيستين تشيَّدت احداهما في هيكل خنسو وهو اول هيكل يصادفهُ السائر اذا خرج من القصور . وكان موقعها في رواق الهيكل وهناك صليبان جميلان نُقرا في الصخر يشيران كما ظن الى مقام المذبح اعني على شمال المدخل

وبازاء الرواق درجٌ صاعدٌ وسم بقربهِ حجَّاجٌ النصارى تصاوير شبيهة بتصاوير وادي المقطَّب على طريق جبل سينا وهي تمثل جمالاً على ظهرها هوادج وفوق الهوادج صلبان ومع هذه الصور اسماء اعلام بالقبطيَّة او اليونانيَّة كبطرس وبولس وغيرهما . ومما

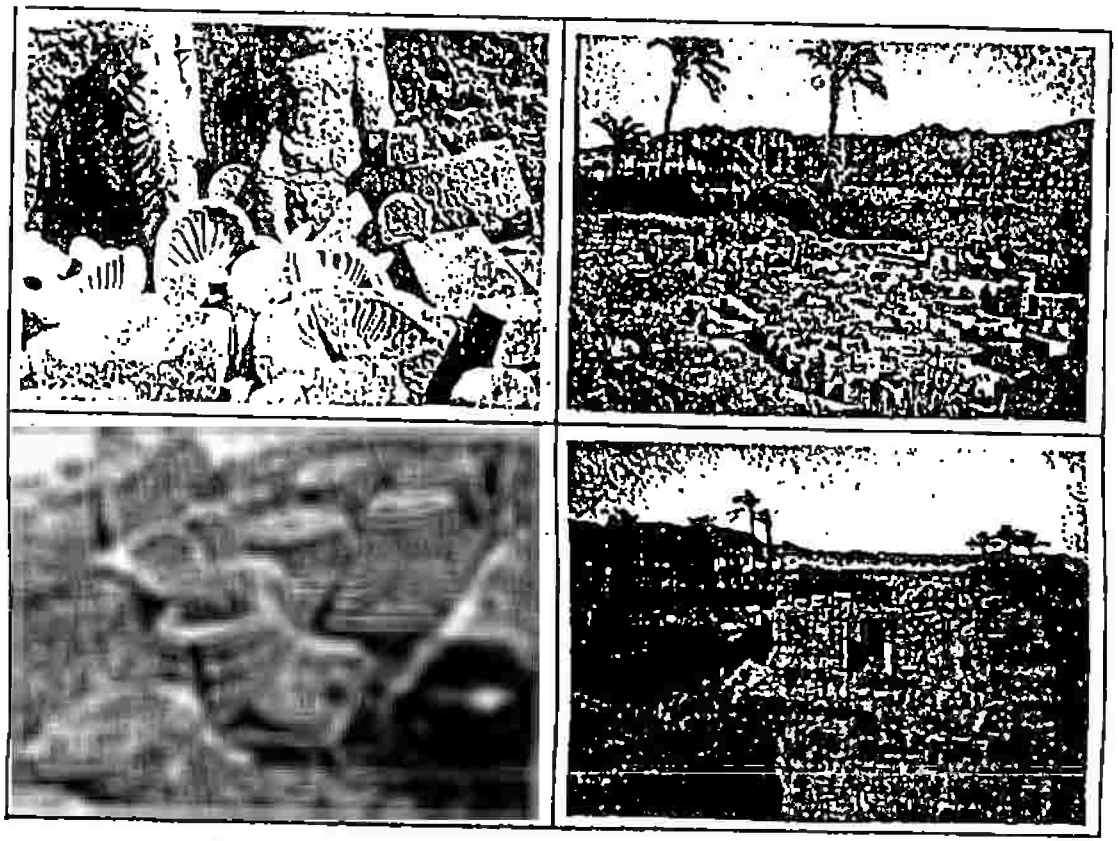

١ كنيسة قلة الكبرى ٢ آثار كنائس قلة ٣ احدى كنائس قلة ٤ آثار أخرى من كنائس قلة

ارشدنا اليه هناك متولي امر العاديات من آثار الوثنيَّة مخابئ في الصخر كان يدخلها سرًا كهنة الاصنام ليتكلَّموا فيها و يوهموا الزوَّار انَّ آلهتهم هي الناطقة

وكان مقام الكنيسة الاخرى في بلاط تحوتمس الثالث الذي يجاور هيكل عمون الكبير وكان موقعها ايضًا في ردهة العواميد المستطيلة التي تُعرف بمشى تحوتمس. فقد صوَّر النصارى على العواميد تصاوير عظيمة تمثل القديسين. منها صورة « أبا شنودي » احد مشاهير السيَّاح سكن في الدير الابيض بقرب سوهاج. امَّا بقيَّة الاسماء فاكثرها قد بادت آثارها لم نتثبَّتها

ومن الآثار ايضًا كرَّى عاينَاها في العواميد تُجعل فيها القناديل وكذلك رأينا في الجدران مخزَّات كانوا يُثبتون في خلالها الحواجز (الشمرِيَّات). امَّا المذبح فاستدوهُ الى الحائط الشمالي. وللعواميد رؤوس اكلَّة مخروطة الشكل غريبة المنظر. ومع ذلك يحسن بنا القول انَّ هذا المعبد كان من ابهى الكنائس التي امكن النصارى في مصر ان يخصِّصوها للاله الحق

٥

واذا عبرنا النيل الى مدافن ثيبة وجدنا ايضًا على ضفَّته الاخرى كنائس واديرة اتخذها النصارى الاقدمون لدينهم في هياكل المصريين. منها الهيكل المقام كمدفن الملكة هتاسو وهو يعرف بدير البحري واسم الدير يشير بلا مراء الى ما كان عليه في ايام المسيحيين. لكن العلماء الذين تولَّوا في عهدنا ترميم هذا الهيكل القديم لم يدعوا فيه من آثار الدير شيئًا ولا جرم انهُ كان محاطًا بسور عالٍ على مثال اديرة القرون السالفة. وقد بقي من هذا السور بقايا تدلُّ عليه

وترى ليس بعيدًا من هذا السور عند زاوية الهيكل الشماليَّة صلبانًا نُقشت على جدرانه القديمة وعلى رؤوس اكلَّة يونانيَّة هناك فاستدللنا بذلك على انَّ النصارى اتخذوا لكنيستهم الردهة الكبرى المعروفة بردهة عمون وهي في دهليز قريب من الهيكل. وفي جوار هذا الدهليز معبد امامهُ دارٌ وفي وسطه مذبحٌ. وليس بين كلّ الآثار المصرية القديمة مذبح سواهُ. وهذا المذبح على شكل صفَّة من الحجارة مربَّعة لا زينة لها غير اطناف ناتئة حولها وكان يُصعد الى هذا المذبح بدرج وعرض المذبح المذكور نحو ثلاثة امتار في علوّ متر ونصف

(كنيسة دير المدينة) واذا سرتَ من دير البحري ثلاثة ارباع الساعة جنوباً بلغتَ «دير المدينة» وهذا الدير يلاصق الجبل كدير البحري وكان قديماً هيكل للاصنام جميل البناء. فجعلهُ الرهبان ديراً كما يشير الى ذلك اسمهُ. الّا انهُ لم يبقَ منهُ غير دائرة سورهِ. وعلى وجه الهيكل كتابات نصرانيَّة عديدة تؤقفنا على اسماء كثير من رهبان الدير كُتبتْ في عهدهم او بعد وفاتهم هذا مثال بعضها:

«انا بطرس الكاهن ابن ابا بولس الكاهن ابن القديس ابا پينيروس الشهيد» = «انا بولس المتوفّى في ٤ برمهات» = «انا متى الراهب» = «مرقس الامين»...

الى غير ذلك من الاسماء مع تاريخ يوم الوفاة. وبازاء هذه الاعلام صفيحة عليها كتابة تفيدنا انَّ عدد المقبورين في ذلك المدفن ٢١ ميتاً. وبذيل الكتابة تاريخ سنة ٢٣٠ و ٢٥٠ للشهداء وهي توافق سنة ٥١٣ و ٥٣٣ للمسيح

وفي داخل الهيكل كتابات وتصاوير لقدماء المصريين لم يمسّها الرهبان باذًى مع ما يتخلّلها من المناظر المستقبحة والصور التي يستخف الزائر من القاء النظر اليها

وهناك ايضاً هيكل رعمسيس الشهير (Ramesseum). ومع ما استولى عليهِ من الخراب يمكن الوقوف على آثار كنيسة كان قدماء النصارى اقاموها في رواقهِ ذي العواميد الفخيمة

(كنيسة مدينة ابو) ولكن لنا في «مدينة ابو» من الآثار المسيحيَّة ما يستوقف الابصار اكثر من الهيكل السابق. فانَّ الانقاض المحدقة بها تدلّ على مدينة عامرة كان يسكنها النصارى في القرن الخامس. ولمَّا لم يجد هؤلاء المؤمنون في بهو الهيكل القديم مقاماً كافياً لعددهم الغفير اختاروا لكنيستهم الدار التي امام ذلك البهو. وهذه الدار الرحبة تبلغ مساحتها ١٦٠٠ متر تكتنفها اروقة فسيحة. وهي تدعى اليوم منتدى الاعياد لان جدرانها تمثّل اعياد رعمسيس الثالث وحفلاتهِ

والنصارى نقضوا الركن المركزي ليتصبوا مكانهُ المذبح ثمَّ احاطوه في وسط الدار بصفوف من ابهى عمد الرخام وجعلوا فوقها غماء فصارت من ابهى الكنائس. على انَّ اكثر هذه الاعمدة قد بادت لم نجد منها الّا ١٥ عموداً من الطراز اليوناني او البوزنطي مع الاكلَّة التي تزين رؤوسها وهي مدحورة عند حائط الهيكل الجنوبي. وكان عددها الباقي منها نحو الثلاثين الّا انَّ المهندسين الذين عُهد اليهم ترميم الهيكل

القديم ازالوها دون ان يأخذوا رسم الكنيسة . وقد وجدنا في ما بقي منها آثار نقوش جميلة . بل كان احد هذه العواميد ملوّنًا بالوان مختلفة وهو الآن مصونٌ في احدى القاعات المجاورة

والخارج من هذه الكنيسة يدخل في رواق مزدان بالسواري يجد فيه جزءًا من الصوّان تزجج كون النصارى اتخذوه للعباد . وهذا الرواق مع الردهة التي تليه والمقدس اللاحق بها يحدّها شمالًا عدّة حجر تمتد الى السور الخارجي كان يسكنها خدمة الكنيسة ولكل حجرة بابٌ ينفذ في السور . وهذه الابواب اليوم مسدودة تُرى آثارها من الخارج وعتباتها العليا تزينها الصلبان المنقوشة فوقها . ولما فُتح النصارى هذه الابواب كانت تربة السور اعلى من بلاط الهيكل كما يظهر ذلك بالمقابلة . واليوم قد زاد ارتفاعها

(كنيسة ادفو) لم يوجد بين الهياكل المصرية معبد صبر على آفات الزمان كهيكل ادفو الشهير . ولعلّهُ احسنُ اثر بقي من عهده . والنصارى الاقدمون جعلوا كنيستهم في رواقه الكبير الذي تنبسط الدار امامهُ . ولا شكَّ انَّ تلك البيعة كانت من افخم الابنية واجملها . اما مذبحها فكانت وجهتهُ الى الشرق . ومن الآثار الباقية هناك معبدان كان الوثنيّون شيّدوهما لآلهتهم واسندوهما الى حائط الدار فلم ينقضها النصارى

(كنائس فيلة) لا بُدَّ من الاسراع الى زيارة كنائس هذه الجزيرة قبل ان تتمّ ترعة النيل التي تُقام اليوم في وسط الشلّالة الاولى فاذا نجز هذا العمل يرتفع سطح مياه النهر على سواء الجزيرة وتبيد آثارُها الشهيرة اللهمَّ الّا هيكلها الكبير الذي يسعى المهندسون في وقايته من طغيان المياه . وقد آثرت الحكومةُ ابتناء الترعة في هذا المكان حذرًا من التكاليف الباهظة التي يوجبها هذا العمل لو بُوشر بعيدًا عن مقاطع الصوّان في اعالي الجزيرة

وفيلة المذكورة (Philæ) جزيرة صغرى لا تُربي دائرتها على الف متر وكان لها مع صغرها خمس كنائس اثنتان في باطن الهيكل وثلاث في خارجه . والسبب في ذلك كثرة النصارى الذين كانوا يتقاطرون الى فيلة فضلًا عن انَّ المؤمنين قديمًا لم يصبروا في كل كنيسة الّا مذبحًا واحدًا ولم يقيسوا على كل مذبح الّا قداسًا واحدًا كما هو شائع اليوم في الكنائس اليونانية

وكانت فيلة قبل عهد الميلاد مزارًا يتقاطر اليه الوثنيون من كل انحاء الصعيد والنوبة ليعبدوا فيه إلهتهم ايزيس. ولمَّا انبعثت انوار الدين المسيحي في مصر اعتصب عبدة الاوثان في هذه الجزيرة وقاوموا مدَّة دعاة الدين النصراني ولم يذعنوا لاوامر تاودوسيوس لوقوع مدينتهم في اقاصي الصعيد ولتغاضي الولاة عنهم. ودامت الحال الى عهد يستنيان فانَّ هذا الملك استأصل بقايا الشرك في سنة ٥٥٢. واقام لنيلة اسقفًا ودشَّن هيكلها فخصَّصهُ برأس الشهداء القديس اسطفانوس. وثبت فيها الدين المسيحي مدَّة قرون طويلة بعد الفتح الاسلامي

وآثار النصرانيَّة في هيكل جزيرة فيلة وافرة. فاذا اجتزتَ مدخلها الاثير على شمال صفَّ اعمدتها بلغتَ ساحةً عظمى فواجهتَ منها المدخل الثاني الذي يؤدي بك الى هيكل الإلهة ايزيس وفي شمالك هيكل « الميلاد » الصغير. فجعل النصارى الهيكلَ الكبير كنيسةً والهيكل الصغير معبدًا

والمعبد يستدلُّ عليه بعدَّة صلبان تراها في جدران الحُجَر الثلاث التي يتركَّب منها المعبد المذكور. والكتابات الهيروغليفيَّة قد مُحقت من الحجرة الوسطى او طُليت بالملاط ولعلَّ النصارى فعلوا ذلك لوقوع المذبح فيها. وهذه الحجرة لا يزيد طولها على ٤ امتار في عرض ٣ منها

امَّا الكنيسة الكبرى فترى على جانبي بابها الواقع تحت المدخل الثاني صليبين ينبئان بقداسة المكان. فكان موقع الكنيسة الموماً اليها في دار الهيكل وفي ردهته ذات العواميد وترى اليوم في اطراف السواري التي في الدار ثقوبًا كانت تُناط بها حبال يمدُّون عليها استارًا تحجب عن المؤمنين اشعة الشمس. وترى ايضًا في المعبر عند مدخل الردهة العامودية بعض صور مسيحيَّة اتلفها الزمان وهذه الصور تمثِّل عينًا في الجهة العليا مدينة اورشليم وتحتها السيد المسيح بين ملاكين احدهما على يمينهِ مستلًّا سيفهُ والآخر على شمالهِ حاملًا شبه صليب. ولعلَّهما الملاكان ميخائيل وجبرائيل اللذان تعتبرهما الكنيسة الشرقيَّة كحارسي جسد المسيح

وفي الردهة المذكورة المذبح وبيت القربان فالمذبح عبارة عن مكعَّب من الصوَّان في مقدَّمهِ صليبٌ منقوش تحيط بهِ دائرة. امَّا بيت القربان فهو منقور في الجدار الشرقي يزينهُ عمودان صغيران على جانبيهِ ولهُ واجهة مستديرة في وسطها صليب ونقوش

وفي وجهي الباب الذي يفصل الرواق عن المقدس كتابتان يونانيَّتان يُستفاد منهما ان الذي قام بهذا المشروع الصالح وتشييد الكنيسة في هذا المكان انَّما هو ٥ الاب الكلّي الطهر والمحبوب من الله ابا تاودوروس ادامهُ الله على حراستها (١ ٥

والمظنون ان تاودوروس المذكور هو اسقف فيلة الذي تولى رعاية المؤمنين فيها سنة ٥٧٧

وهناك ايضاً على جانب الباب ترى امرأة ماسكة بيدها صليباً كانها تعرضهُ للسجود. وصورة المرأة كانت داخلة في جملة نقش قديم فجعل النصارى في يدها هذا الصليب تبرُّكاً

وبينما كنَّا نفحص هذه النقوش اذ رفعنا الرأس الى ما فوق الباب فرأينا عند عتبته العليا اسم البابا غريغوريوس السادس عشر (٢ فاستبشرنا برؤية ذكر امام الاحبار وناثب المسيح على الارض كانَّ هذا الاسم الميمون شمل برناسهِ السامية العالم القديم والعالم الجديد اذ دُوِّن في هيكل قديم حوَّلهُ النصارى الى كنيسة خلَّد الله وناسة الاحبار الرومانيين الى منتهى الادهار

امَّا الكنائس الثلاث التي بُنيت في فيلة خارج الهيكل فكلُّها في شمالي الجزيرة. وكانت احداها تابعةً لدير موقعهُ في رأس الجزيرة الشمالي قد طُمست اليوم آثارها. وكانت الثانية وراء حنيَّة الهيكل الكبير تبعد عنهُ نحو ٣٠ متراً ولها آثار باقية وهي حسنة البنيان متوسطة الكبر ذات ثلاثة اسواق وحنيَّتها متجهة الى الشمال بميلة الى الشمال الشرقي. وترى لها كتابة يونانيَّة خُطَّت في حائطها المواجه للمذبح

وكانت لفيلة كنيسة ثالثة اوسع من الاولين تُرى بقاياها شرقاً على بعد بعض

---

١) هذا نص الكتابة الاولى Και τουτο το αγαθον εργον εγενετο επι τον οσιωτατον πατρον ημων επι Αππα Θεοδωρον. υπο εαυτου διακωλαξ η επι μηκιστον Ευ τουτο εργον εγενετο επι του θεοφιλεστατου وهذا نص الكتابة الثانية χρονον πατρος ημων Αππα Θεοδωρου του επισκοπου

٢) وقد ورد اسم البابا في مدر كتابة ايطالية حفرها الوفد الروماني سنة ١٨٤١. وهذا الوفد كان يتقدمهُ السيدان كمبريني وتُستي ارسلها الاب الاقدس لتنقلا من مصر الى رومة ما تكرَّم به محمد علي باشا خديوي مصر من الرخام لبناء الاعمدة التي أُقيمت بمدئذٍ في كنيسة مار بولس الملكيَّة خارج السور. والرخام نقلهُ الربان انطونيو كلفي في سفينة تُدعى فدلا (La Fedelta) الى جا من نهر النيل الى اول شلَّالات النيل

خطوات. وهذه الكنيسة كانت ايضاً مثلثة الاسواق متجهة الى الشرق

واعمدة هذه الكنائس الثلاث التي وجدها المهندسون في اخربتها قد نُقلت الى الساحة المستدّة امام دار الميكل الكبير وراء صفوف اعمدته الشرقية. فلمّا فحصناها وجدنا بينها نقوشاً جميلة من طرز البناء اليوناني او البرزنطي. وأثار فينا نظرُها الاسف على خراب الكنائس التي أُقيمت فيها هذه الاعمدة وهي كانت تنبئ بمعارف قدماء النصارى في الهندسة فضلاً عن انها تنطق عن تقاهم وعبادتهم. امّا عهد هذه النقوش فيخيل لنا انها معاصرة لنقوش كنيسة دندرة

ومما اطلعنا عليه هناك تمثال طوله نحو القامة وهو يمثل شخصاً يضمّ فوق صدره سعفاً من النخل وبيده الأخرى يمسك قطعة من دولاب محدَّد. فتبادر الى ذهننا ان هذا تمثال القديسة كاترينا الاسكندريّة الشهيدة. ذنعنا الله بصلواتها وقوّى المصريين بايمانها (تتمّة)

بحيرة لوط والمدن الخمس

لحضرة الاخ يوسف كليس احد معلمي مدرسة الايتام في بيت لحم

لمّا كانت هذه البحيرة اكبر بحيرات فلسطين وسوريّة يؤمّها السيّاح والزوار لخطورة شأنها في التاريخ القديم شاقني الاطلاع على احوالها فزرتها في هذه الاثناء مع فريق من اهل الادب لاستكشاف ما هنالك فاحببتُ ان اضمّن رحلتي اليها موجز تاريخها ووصفها في هذه المقالة التي ازفّها الى قراء مشرقكم الأنور فاقول:

أن موقع هذه البحيرة في الجنوب الشرقيّ من القدس الشريف في مسيرة ١٨ ميلاً في وطاءٍ من الارض يسمّيه الكتاب غور السديم. ويرجح الآن انها تغطي جانباً عظيماً من المدن الخمس التي امطرها الله ناراً وكبريتاً (ص١٩ من سفر التكوين). وطولها من الشمال الى الجنوب يقارب ٥٠ ميلاً وعرضها نيّف و ١٠ اميال وهي منخفضة عن سطح البحر المتوسط ١٣١٦ قدماً ولمّا كانت هذه البحيرة مَفْرغة لمياه غزيرة لانخفاض مكانها كما قدمنا وكان لا منفذ لها ظاهر ولا يبدو فيها أثر من زيادة مائها او نقصانه تضاربت في امرها آراء العلماء ونحن ذاكرون لهم رأيين مرجحين الثاني منهما على الاول

قال الفريق الاول ما خلاصتهُ: ان غور ارض هذه البحيرة وانخفاضها الزائد جدًّا